اللغة العربية كحد للهوية وتحد للعولمة

أ. صباح محمدي

تقديم:

سعى العرب منذ القديم إلى المحافظة على اللغة العربية لفظا ومعنى، فقد كانوا يرتحلون في الصحاري من أجل التأكد من صحة كلمة ما، وإنشاء المعاجم اللغوية حتى تتميز دلالة كل لفظة عن الأخرى، وذلك لثرائها ودقة معانيها وهذا ما تفتقر إليه اللغات الأجنبية، وقد ازدهرت أحيانا وتقهقرت أحيانا أخرى.

وقد تعرضت اللغة العربية وما تزال تتعرض لأشرس الهجمات سواء من أبنائها وذلك من خلال تجاهلها والتخاطب بلغة أجنبية، أو أعدائها من خلال طمسها أثناء الفترات الاستدمارية للبلاد العربية والإسلامية، أو بتحبيب العرب في اللغة الأجنبية، ولو تعرضت اللغات الأخرى لما تعرضت له اللغة العربية لتلاشت منذ أمد بعيد.

فالغرب ينظر للعرب على أنهم مسلمون ولا زوال للإسلام إلا بزوال لغته، فعمل على طمس الهوية العربية الإسلامية ومحاربتها، وذلك من خلال العمل على محو اللغة العربية من أذهان أهلها كونها حد من حدود الهوية وتعد العولمة الجارفة والعلمانية المتطرفة العدو اللدود والعصري للهوية العربية الإسلامية؛ إذ يعملان على إعدام اللغة العربية في أوطانها، واستبدالها باللغة الإنجليزية واقتلاع الإسلام بفصله عنها.

وتسعى هذه الدراسة لإضاءة بعض المصطلحات (الهوية، اللغة، العولمة و العلمانية) ثم توضيح واقع اللغة العربية في ظل العولمة والعلمانية، ثم تحديها لطوفان العولمة الجارف والعلمانية المتطرفة.

١ / إضاءة المصطلحات:

أ/ الهوية:

لم تشر المعاجم العربية إلى لفظ الهُوية، وهي مفردة جديدة دخيلة على اللغة العربية وأقرب مفردة إليها هي: الهَوية، فقد جاء في لسان العرب بأنها: "البئر البعيدة المهواة"١ .

أما الجرجاني صاحب كتاب "التعريفات" فقد عرف الهوية بأنها: "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"٢. فالهوية هي جوهر الشيء وحقيقته.

وهي إحساس فرد أو جماعة بالذات، إنها نتيجة وعي الذات بأني أو نحن نمتلك خصائص مميزة ككينونة تميزني عنك وتميزنا عنهم، فالطفل الجديد قد يمتلك عناصر هوية ما عند ولادته بعلاقة مع اسمه وجنسه وأبوته وأمومته ومواطنيه، وهذه الأشياء في كل حال لا تصبح جزءً من هويته حتى يعيها الطفل ويعرف نفسه بها٣.

ويرى سبيفاك spivak أن: "محاولة فهم ذواتنا هو ما ينتج الهوية"٤. وهوية الأمة هي صفاتها التي تميزها عن باقي الأمم لتعبر عن شخصيتها الحضارية٥.

ويعتبر لايبنتز Leibnitz الهوية أنها "وعي الإنسان بوحدته رغم التغيرات التي تطرأ عليه خلال مختلف مراحل وجوده؛ أي بقاؤه مساويا نوعيا لذاته، وواحدا عدديا في كل الأحوال"٦.

وتقوم الهوية على ثلاثة دعائم:

- الدين: العقيدة التي توفر رؤية الوجود
- اللغة: اللسان الذي يتواصل به القوم ويعبرون به عن حاجاتهم
- الحضارة: من وطن وتراث ثقافي طويل المدى وتاريخ٧.

وقد أيقن أعداء الإسلام خطورة استعادة المسلمين لهويتهم الإسلامية ولغة القرآن الإلهي، فأكثروا شنّ الحروب الغربية والاستشراقية والتنصيرية، ونشر الفتنة بين الطوائف الإسلامية وسياسات التفريق، وكل ذلك لكي يطمسوا الهوية الإسلامية العربية ويسودوا هم العالم والعقول، وتسود لغاتهم الألسنة البشرية "فكانت بذلك الحروب تزداد يوما بعد يوم على كل ما له علاقة بالهوية الإسلامية"٨.

وفي هذا الصدد يقول نيكسون رئيس

الولايات المتحدة الأمريكية سابقا: "إننا لا نخشى الضربة النووية، ولكن نخشى الإسلام والحروب العقدية التي قد تقضي على الهوية الذاتية للغرب"٩.

ب/ مفهوم اللغة:

جاء في لسان العرب: اللغة: اللَسن، وأصلها لُغوة على وزن فُعلة من لغا إذا تكلم، ولغوت إذا تكلمت والجمع لغات ولغون والنسبة لُغوي١٠. وهي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم١١.

فاللغة أولا وقبل كل شيء نظام من الرموز الصوتية، وتكمن قيمة أي رمز في الاتفاق عليه بين الأطراف التي تتعامل به، وقيمة الرمز اللغوي تقوم على علاقة بين متحدث أو كاتب هو المؤثر، وبين مخَاطَب أو قارئ وهو المتلقي١٢، وعليه فاللغة وسيلة نقل الأفكار والتعامل بين الأفراد "وهي تعبر عن الوجود والهوية من حيث إنها حاضنة لعوامل الارتباط العضوي بين الماضي والحاضر والمستقبل، ومصدر تحديد الملامح الأساسية المعبرة عن طبيعة وخصوصية المجتمع والأمة"١٣ فهي خلية اتصال ورابط شحن أساسي وفعال في توحيد أفراد الأمة، فاللغة هي الحاملة للهوية، حيث تقوم بوظيفة أساسية في تأسيس النظام الاجتماعي.

ولسنا نشك في أن اللغة العربية هي الجسر الذي يربط بين الأجيال في الماضي والحاضر والمستقبل، وهو ما يؤكد رسوخها وثباتها من جهة، وتغيرها إلى أشكال متطورة من جهة أخرى في إطار الارتقاء المعرفي والعلمي، فهي بثباتها وتغيرها تبقى محافظة على بنيتها الأسلوبية (المستوى النحوي والصرفي والدلالي والبلاغي). ما يجعلها متلاحمة متماسكة في نقل التراث، فهو لا يتغير عبر الزمان و لا المكان وإن اختلفت الثقافة بعكس ما يطرأ على بعض من أبنائها الذين يتغيرون عنها، إما باستعمال لغة أخرى أو التعامل بالازدواجية اللغوية مثلا، وهما تكمن العلاقة بين اللغة والدولة والمجتمع وفي هذا الصدد يقول العلامة الاشبيلي "إنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة أهلها وفراغهم، وأما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم... فمضمون منهم موت الخاطر وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وبيود علومهم، هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة"١٤. فاللغة هي قوام النهضة والحضارة للأمة وازدهارها، وأساس قوتها ووحدتها، وصلاح مجتمعها مرهون بصلاح لغة أفراده ومتانة تمسكهم بدينهم، فصلاح المجتمع العربي لا يتحقق إلا بسلامة التعامل بلغته العربية والتدين بالإسلام الصحيح، لا التدين الزائف كون الإسلام واللغة العربية متلازمان أينما كان الإسلام وكانت اللغة.

واللغة العربية هي جوهر الوجود العربي الإسلامي ووحدته. وكل من يدعو إلى اتخاذ اللغات الأجنبية أو العاميات في الوطن العربي وسيلة للتعبير والتواصل متخليا عن اللغة العربية الفصحى الأم، إنما يذبح بل يعدم أمته هوية ووجودا وحضارة وإبداعا، وهو بذلك عدو لها ولأبنائها المخلصين للتمسك بالفصحى كتابة وتواصلا يقول الفيلسوف الألماني هيدجر: "إن لغتي هي مسكني، وهي موطني ومستقري، هي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع" أما فيخته فقال: "إن الذين يتكلمون بلغة واحدة يكونون كلا موحدا ربطته الطبيعة بروابط متينة"١٥.

والمتمعن في واقع التداول باللغة العربية في أوطانها يدرك أهمية استشراف التجربة القاسية والمرة التي مرت ولا تزال تمر بها، وذلك من خلال معاناتها من المرض اللغوي الذي يظهر من خلال الانحرافات اللسانية والتشوهات الفكرية، فقد أخذت تفرز تسلل الخلل إلى مفهوم الوطنية والقومية على اعتبار أن اللغة حد للهوية لتتجاوز بذلك مفهومها على أنها معبرة للحاجات والأفكار والتنفيس عن المشاعر، وإنما أصبحت إشكالا فكريا ومشكلا قوميا فهي جزء لا يبتر من الخصومة الوطنية والقومية بين الثقافة العربية وثقافة العولمة التي تريد أن تُغرق الثقافات الخاصة بالشعوب، فاللغة وعاء الثقافة وركيزة التفكير الحر والسليم وجوهر امتلاك القدرة الذاتية التي تقف في مواجهة الصراعات العالمية وفوضاها العارمة.

ج/ العولمة:

هذا المصطلح ذاع في أواخر القرن العشرين،و هو ذو مفهوم زئبقي ومراوغ، فهو متعدد الدلالات وهذا ما يصعّب وضع مفهوم محدد له شائع الاستخدام ويتمتع بالقبول الجماهيري، وسنعرض بعض التعريفات الموضوعة له.

فالعولمة أو الأمركة كما يسميها البعض على وزن - فعللة - أي القسوة والقهر، وهي حمل العالم على الأخذ بالمناهج الغربية، أو صب العالم في قالب

الحضارة الغربية المهيمنة اقتصاديا وسياسيا وثقافيا، وطمس الهويات فهي غزو ثقافي، اجتماعي، اقتصادي وسياسي يستهدف الدين والقيم والفضائل والهوية، كل ذلك باسم العولمة وحقوق الإنسان١٦.

والعولمة مشتقة من "عالم" التي يعرفها " مختار الصحاح" وتجمع عوالم والعالمون أصناف الخلق والعالمين تشمل الكون؛ أي (عالمنا) والعوالم الأخرى. وهذا المصطلح هو ترجمة للكلمة الإنجليزية globalisation المشتقة من كلمة globe التي يعرفها قاموس المورد (انجليزي/ عربي ١٩٩٥) على أنها كرة أو الكرة الأرضية١٧ .

ويرى الدكتور عبد الله عبد الدائم أن العولمة تنادي في ظاهرها بالربط والتوحيد بين البلدان والحضارات والتغلب على العامل الجغرافي وجعل العالم قرية واحدة، غير أنها في باطنها عامل صراع ودعوة إلى سيطرة القوي على الضعيف، والغني على الفقير وسبيلا لهيمنة قوى علمية كبرى محدودة١٨.

فالعولمة حسب هذه المفاهيم تبرز تباين الأنظار حولها لتباين المنطلقات الفكرية للمعرفين لها، بين ناعت لها بالأمركة وبأحادية القطب؛ أي بسلبيات تفرضها، ومادح لها ومؤيد على أساس أنها تحمل النهضة والانفتاح على الآخر، ومن يتموقع وسطا بين الموقفين " العولمة هي جعل العالم مجالا لممارسة النشاطات المتعددة: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، إنها بمعنى آخر إمكانية ممارسة النشاطات على مستوى العالم من دون قيود أو حواجز"١٩.

هذا التعريف هو الآخر يبرز سلبية العولمة من خلال تأكيده على زوال الحواجز في زمن العولمة، ما يعني دخول الآخر لأسقاع الآخرين وخصوصياتهم بما في ذلك اللغة، ويبرز إيجابياتها التي تتجلى في إمكانية بلوغ إي ممارسة مهما كان جانبها (اقتصادي، ثقافي،...) صرح العالمية.

أما الدكتور محمد عابد الجابري فيعرفها بأنها: "نفي للآخر وإحلال الاختراق الثقافي محل الصراع الإيديولوجي، كما تعني الهيمنة وفرض نمط واحد للاستهلاك والسلوك"٢٠ . فالجابري هنا يميز بين العولمة والعالمية، فالأولى هي مرادف للهيمنة والسيطرة وما تحمله من دلالات ونتائج، والثانية هي التفتح في ظل الاحترام المتبادل، والتعدد مع الحفاظ بشكل من التميز والخصوصية، بمعنى آخر التزاوج بين التنوع والتميز بما يحقق نوع من التعايش بين الدول باختلاف حضاراتها وخصوصياتها وثقافاتها مع الانفتاح على الآخر.

وتبدو العولمة وكأنها قد فاجأت العالم العربي، ليست ظاهرة معاصرة مفاجئة "فهي مرحلة من مراحل التفكير الإنساني في العالم المعاصر، بدأت بالحداثة، ما بعد الحداثة، العالمية ثم العولمة"٢١ . فقد بدأت ظاهرة العولمة عند العرب في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ولكنها لم تكن بالمعنى الحالي لها، بل كانت تعني العالمية، فقد استهدف الرسول- صلى الله عيه وسلم - إخراج العرب من نظامهم القديم المظلم الظالم إلى نظام جديد نيّر وعادل، تحل فيه فكرة الأمة محل القبيلة والوحدة محل الانقسام، والمحبة والإخاء محل العداوة والتخاصم، وذلك عن طريق العقيدة الإسلامية الجديدة التي آمن بها العرب، وعدلوا سلوكهم بما يتماشى وتعاليمها، والإسلام كعقيدة لم يخص العرب فقط، والرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يرسل للعرب فحسب بل للإنسانية جمعاء، وهذا ما ورد في سورة الأعراف لقوله تعالى: << قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا>> <<وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين>> فالله عز وجل لم يرسل محمدا لقرية وحدها ولا للعرب وحدهم، بل للناس كافة في الأرض ليبلغهم رسالته العالمية التي تقوم على أساس تكريم الإنسان أيا كان جنسه أو عرقه أو لونه لقوله تعالى في سورة الإسراء: << ولقد كرمنا بني آدم>> الآية ٧٠، فقد استخلفهم الله في الأرض وسخر لهم ما في السماوات والأرض جميعا على أساس المساواة بين الناس في أصل الكرامة الإنسانية وفي التكليف والمسؤولية، وأنهم يشتركون جميعا في العبودية لله سبحانه وتعالى، وأنهم كلهم من تراب أبناء آدم عليه السلام، ولا فرق بينهم إلا بالتقوى. وهذا ما جاء في خطبة حجة الوداع للرسول - صلى الله عليه وسلم - <...يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى> - رواه الإمام أحمد في مسنده ج ٥ ص ٤١١، عن أبي نضرة عمن سمع خطبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسط أيام التشريق - .

وبعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - قام المسلمون بشحن كل قواهم لقيادة الدولة الإسلامية الناشئة فاتسع نطاقها وضمت شعوبا متعددة الأجناس والديانات والعادات واللغات واللهجات، واندفع

المسلمون من شبه الجزيرة العربية ينشرون التعاليم الإسلامية في أرجاء المعمورة، ففتحوا أقطارا كثيرة شملت الهند والصين وأفغانستان وإيران والعراق والشام ومصر وبلاد المغرب، كما عبروا البحر الأبيض المتوسط وصولا إلى جنوب فرنسا.

وبذلك استطاع الإسلام أن يحدث امتزاجا قويا بين المسلمين وغيرهم، إلا أن ما ميز الإسلام عن غيره - وإن كانت طبيعته عالمية - إلا أنه لم يكن يهدف إلى الهيمنة أو السيطرة والقضاء على خصوصية الشعوب وإنما يهدف إلى نشر الدعوة٢٢ .

على عكس الولايات المتحدة الأمريكية المنادية بالعولمة كمصطلح بديل، هدفه إضفاء صفة البراءة واللطافة والظرافة وحب الآخر وحب الإنسانية على الأمركة، فهي تسعى لفرض هيمنة سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية على العالم، وخصوصا على العالم الثالث، وبالأخص العالم الإسلامي، فالو م أ بتفوقها العلمي والتكنولوجي، وبقوتها العسكرية الهائلة، وبإمكاناتها الاقتصادية الجبارة، وبنظرتها الاستعلائية التي ترى فيها نفسها أنها سلطانة العالم وسيدته الآمرة الناهية تريد أن تسوق البشر بعصاها حسب أهوائها.

فالعولمة في المفهوم الأمريكي لا تعني معاملة الأخ لأخيه كما يريد الإسلام، ولا معاملة الند للند كما يريد الأحرار والشرفاء في كل العالم، بل تعني معاملة السادة للعبيد، والعمالقة للأقزام والمستكبرين للمستضعفين٢٣ .

فالعولمة إذن هي الحمل والإجبار باطنيا، أما ظاهريا فهي طريقة سحرية مغرية تقوم على الإيهام، وذلك بتحويل العالم إلى قرية كونية وبذلك يقترب الجميع من ثقافة كونية وأسرة كونية٢٤ وهذه القرية والثقافة والأسرة لا يكون التخاطب بين أفرادها إلا بلغة واحدة موحدة، ولاشك أن واضع هذه السياسة (العولمة) يسعى إلى فرض لغته وهذا ما نعتبره أخطر أنواع الاستدمار؛ لأنه يقع على الفكر والوجود والهوية واللسان العربي، كيف لا ومازال صدى عبارة (ريتشارد نيكسون): "إن الله مع أمريكا، إن الله يريد أن تقود أمريكا العالم" يتردد في كل التصريحات الفرعونية للإدارة الأمريكية٢٥ ، فقيادة أمريكا للعالم وسيادته تعني استعباده وطمس شخصيته وهويته وأناه والتحكم فيه والاستسلام والانصياع لما تريد، من خلال مقولة "نحن نختار لك ودعنا نفكر نيابة عنك، واستسلم لأمرنا تكن في أمان من القتل"٢٦ .

فأمريكا بهذا التصريح لا تحترم الآخر ولا تعترف تعترف بخصوصية الأطياف العقائدية إلا بقدر ما يخدم مصالحها العليا، ولا تقر بالتعددية الثقافية - التي تعد شرطا موضوعا للتكامل الحضاري الإنساني - إلا بقدر ما ينسجم مع مشروعها الثقافي الذي يحفي بريقه الإنساني مثاقفة سلبية لا تحترم اختلاف الأجناس والأعراق، وكيف يمكن أن تمتلك ثقافة احترام العرق الآخر، وهي التي قامت على أنقاض عرق آخر؟ كما دعت في غير مناسبة إلى تغيير الخطاب الديني في المناهج الدراسية الإسلامية، ويقتضي هدف البحث أن نتجاوز عن البعد السياسي للعولمة فلهذا البعد أهله الذين ما انفكوا يسوقون العولمة السياسية وفق رؤى مختلفة ومتناقضة، وأن نغفل البعد الاقتصادي فله اختصاصيون لا يقل خلافهم في العولمة الاقتصادية عن خلاف أصحاب التيار السياسي.

وسنحرص على المحور الرئيسي للبحث وهو البعد الثقافي واللغوي للعولمة باللغة العربية كحد لهوية العرب والمسلمين، هذه الهوية التي وقعت بين مخالب العولمة والعلمانية.

د / العلمانية :

دون التفتيش في تاريخها هو ترجمة خاطئة للفظة sécularisme الانجليزية، إذ لا صلة لها بالعلم ومشتقاته؛ لأن العلم يعني بالانجليزية science كما أن الألف والنون غير قياسية في اللغة العربية، والاسم المنسوب فيها وإنما جاءت سماعا ثم شاعت مؤخرا فقط في كلام المتأخرين٢٧ ، وتعني ترجمتها الحقيقية والدقيقة اللادينية.

ولا توجد لفظة العلمانية في معاجم اللغة العربية القديمة، ولم ترد إلا في بعض المعاجم الحديثة، ومن ذلك ما ورد في المعجم الوسيط: العلماني نسبة إلى العلم بمعنى العالم أي الدنيا وهو خلاف الديني أو الكهنوتي٢٨ .

فمعناها الحقيقي فصل الدين عن كل جوانب الحياة (سياسية، ثقافية...) ومن خلال ذلك تمرير فصل العرب عن العربية لغة الدين الإسلامي ورميها بأنها السبب في التخلف، بيد أن الحق في كون المسلمين أولى الناس باحترام العلم فهم أمة "اقرأ" أول خطاب إلهي لنبيهم ولهم من بعده، وتبني العلمية في كل أمورنا، فالدين عندنا

علم، والعلم عندنا دين، ولم يشهد تراثنا صراعا بين الدين والعلم كما شهده الغرب الذي أدار رحى الحرب بينهما قرونا، خاصة في العصور الوسطى التي سيطرت فيها الكنيسة وعملت على القضاء على النشاط العقلي فما من عالم يخترع شيئا أو يكتشفه إلا وتعدمه.

٢ / وضع اللغة العربية في ظل حوار الثقافات الذي تديره العلمانية المتطرفة والعولمة اللغوية والثقافية :

يمكن أسر الشعوب أو نفيها من مواطنها، أو تشريدها من بيوتها، وتظل مع ذلك حرة لها هويتها الذاتية ما لم تتخلى عن لغتها الأم وتصدت لمن يريد سلبها واستبدالها بلغة دخيلة. فحرية الشعوب لا تعني القضاء على القوى العسكرية أو طردها فقط، بل تتجاوز ذلك إلى ترسيخ لغتها في عقول أبنائها وألسنتهم، ومقاومة الغزو الثقافي الاستدماري للغة أشد من الاستدمار العسكري.

والصراع الحضاري اليوم هو طرح غربي، يحاول الغرب بكل ما استطاع أن ينفي الآخر الذي لا يتفق مع ليبراليته، ويختلف عنه في المقومات الثقافية كاللغة، وهذا كله بحجة وهمية إغرائية وهي توحيد العالم، وهذا الزعم ينفيه التاريخ ويبطله بحقيقة موثقة وهي أن اختلاف اللغات لا يعد عنصر تمزق اجتماعي "وما ينبغي الإقرار به بأن اللغات المتداولة حتى وإن كانت متعددة فإنها ساعدت في أغلب الحالات على صيانة ونقل الثقافات الوطنية"٢٩ وتسعى المجتمعات إلى الانفتاح أيضا من خلال بوابة اللغة، ولغتنا العربية اليوم في تحد وصراع لمقاومة طوفان العولمة وإعصار العلمانية ووضع حد له.

فلغتنا هي من مقومات وحدود هويتنا العربية، التي تعمل العولمة على طمسها وذلك من خلال وسائل الإعلام الحديثة خاصة. وما تساهم به من تنميط عالمي من جهة وطغيان ما يعرف بعصر الصورة على كل الأساليب الاتصالية من جهة أخرى، وتنهار اللغات العالمية اليوم في ظل القطبية العالمية الأمريكية، ومن بوابة اللغة فإن اللغات العالمية تطغى عليها الانجليزية التي تحاول أن تعلو باقي اللغات متجاهلة إياها، وهو ما تطالب به أوروبا على لسان اللغة الفرنسية: "يا ثقافات العالم اتحدي ضد الغزو الثقافي الأمريكي وتخلصي من وطأة الانجليزية"٣٠ . ونحن لا نريد إعدام الانجليزية بل نريد المحافظة على لغتنا العربية، ولكي تبقى هويتنا العربية متميزة مستقلة عن الآخر؛ لأن إدراكنا ووعينا لهويتنا لا يتم إلا بلغتنا العربية التي عمل الاستدمار جاهدا على اجتثاثها وإحلال لغته أينما حل في البلاد العربية، ولم يفلح في ذلك فدعا إلى التخاطب باللهجات المحلية على أساس أنها لغة وظيفية؛ لأنه أيقن عبقرية لغتنا التي لا تضاهيها عبقرية لغته وأنها تستجيب لمطالب العصر دون إشكال إلى جانب القرآن الكريم الذي حفظها وطورها.

فعلا نحن اليوم في عصر العولمة نتخاطب بلغتها ونقتني منتجاتها، ونقضي بها مصالحنا، ولكن هذا لا يمنعنا من الصلاة ولا قراءة القرآن أو أداء عباداتنا التي لا تتم إلا بلغة هويتنا العربية، التي أثرت عليها سلبا العلمانية إذ نعتتها بالتخلف عن مواكبة التطور التكنولوجي والتراكم المعرفي والركب الحضاري، واتهامها بالقصور في احتواء التقدم العلمي، والبارز أن العلمانية نجحت نوعا ما في مقاصدها، حيث نجد أن العربية قد همشت في معظم المؤسسات الجامعية والإدارية والميادين الطبية . وإن كانت العربية هي اللغة الرسمية في البلدان العربية . فحلت الانجليزية والفرنسية محلها، فأضحت لغتي التخاطب الفعلية في معظم الميادين، وتقهقرت العربية تدريجيا بحسب المخططات المدروسة لعلمهم بأنها لغة القرآن الكريم ومفتاح علومه الشرعية.

خاصة وأن عصر العولمة الحالي يساعد على انتشار اللغات ويشجع الأجيال المعاصرة على اكتساب أكثر من لغة في بيته دون معلم، وبالتالي توفير المال وتحقيق الرقي الاجتماعي، فعندما منعن النظر في سوق العمل نجد الانجليزية تحتل مكانة مرموقة مهمة، وصار أمر إتقانها ضروريا من قبل الشركات الأجنبية، حتى أضحت ظاهرة تستحق الوقوف عندها، وتأمل تأثيرها على ملامح الهوية ومصالح الوطن، فصرنا نعيش عولمة لغوية ونحسها ولا نحرك لها ساكنا؛ لأن اللغة العربية أصبحت ضعيفة أمام اللغات المهيمنة وذلك لقوة اقتصادها ومعرفتها... ولا نغفل دور مساهمة الشركات المتعددة الجنسيات والعابرة للحدود في تعميق هذه الأزمة الحتمية فأصبح الوطن غريبا لغويا في مؤسساته كالمستشفيات والفنادق، مما يفرض عليه تعلم لغة أجنبية وهو في بلاده معزز مكرم . من المفروض . وكأن لغتنا العربية عاجزة عن استيعاب هذه المعارف العصرية والمستجدات الحضارية والعلمية، مع الإقرار بافتقارها للمعارف

العصرية، لكن ذلك مرده إلى أبنائها الذين بالترجمة الحرفية ولا يؤصلون المصطلحات ولا يعربونها ولا يفعلون آليات التوليد كالاشتقاق، وهذه خطة الغرب في شبكة العولمة العلمانية، مما أدى بتمكن الداء من العرب، وأيضا من خلال تطبيق المخططات والمناهج الأجنبية في البلاد العربية للقضاء على لغتها، بهدف إبعاد أبنائها عن القرآن الكريم وتغيير معانيه مع الوقت؛ لأنهم يدركون أن "اللغة التي من خلالها استوعب المواطن حقائق الإسلام، وهي الأداة التي بها يناجون خالقهم في كل يوم ويفهمون القرآن ويطلعون على التراث والتاريخ والآداب، وبها يتواصلون مع أبناء جنسهم ويحسون بانتمائهم القوي"٣١ وعليه لا سبيل للقضاء على الإسلام إلا بالقضاء على الأمة العربية والمسلمة، ولغتنا العربية التي تمثل الدين والهوية والثقافة والتاريخ، بدليل أن الإمام ورائد النهضة الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ جعلها رديفة للإسلام وخصص لها مكانة في مشروعه الإصلاحي وخطته التعليمية، لأن المستعمر الفرنسي ومؤيدوه أرادوا القضاء على الإسلام في الجزائر من خلال القضاء على اللغة العربية واستبدالها بالفرنسية.

فهوية الجزائر وأي بلاد عربي مرهونة بالمحافظة على الإسلام ولغته، ولكن واقعنا يظهر العكس فمحلات العرب اليوم موسومة بأسماء غربية، وقنواتنا الفضائية بل حتى بعض مدارسنا وأسرنا التي تستقطب خادمات فلبينيات ـ مثلا ـ فيقمن بتربية أبنائنا على استعمال اللغة الانجليزية ولا نحس بالذنب تجاه لغتنا وهويتنا، وإنما ندفع بها إلى المقصلة ونخجل منها ولا نثق بها، وهذا كله إحباط للغة العربية والعيب فينا لا في ذات اللغة العربية؛ لأننا نطبق العولمة والعلمنة في المناهج التعليمية، ونقلص الفترة الزمنية المخصصة للتربية الإسلامية وإقصاءها كشعبة (تخصص في الجزائر) وكأننا لا نعارض العلمانية.

ومن التأثيرات السلبية للعلمانية والعولمة على الأمة العربية، أن الواقع اللغوي يتسم بصفة تسمى "الازدواجية اللغوية" التي لم تأخذ حظها بعد من الدراسة والتحليل بغية علاجها، فلا نكاد نجد شخصا يتكلم جملة إلا وفيها كلمة أجنبية، أو يمزج بين كلمة عربية وأخرى أجنبية في الجملة الواحدة (je révise للامتحانات) وهذا تركيب لغوي لا أصل له في اللغة العربية، وكأنه يخجل بلغته أو يعدها قاصرة على استيعاب قوله، وهذا ما ينتج عنه لغة هجينة فلا هو بالفرنسي ولا هو بالعربي أو الانجليزي، إنه انحلال في الآخر دون أن يقبله، فالآخر يريد غيره أن يتكلم بلغته ـ الانجليزية مثلا ـ وهذا يضمن له طمس هويتنا العربية؛ لأنه عجز عن تدميرها بالقوى العسكرية، وأيقن أن اللغة العربية هي الدرع الواقي والقوقعة التي تحمي هويتنا من الاندثار، خاصة وأن أبناءها متمسكون بالإسلام ولغته؛ "لأن المجال اللغوي هو المجال الأول الذي تدخل منه العولمة لتدمير مقومات الأمة الذاتية، وبذلك تنهار المعنويات في كي مناحي الحياة الثقافية والاجتماعية، ولا يعود للأمة عندئذ إلا للخضوع للغالب أو للأقوى لغة وعلما، وتبرز صيغة المغلوب مولع بتقليد الغالب"٣٢ .

وعليه فنحن من عولمة لغوية حادة كاسحة، تحاول القضاء على لغتنا العربية بحجة عدم وظيفتها إلا في حدود ضيقة، وغير مرنة، فمادامت ليست لغة الإنتاج التكنولوجي، وليست لغة الحضارة والتمدن فإن هذا كله سيساهم في تراجع اللغة العربية عند أبنائها وهي "لغة تقبل المراجعة لا التراجع"٣٣ فالعربي عند عجزه عن استعمال لغته عليه بمراجعتها من كتب الأولين، لتحقيق سلامتها ولن تكون اللغة العربية سليمة إذا ما هجر أبناؤها القرآن الكريم.

٣/ تحدي اللغة العربية للعولمة والعلمانية وسبل مواجهة مخاطرها:

قوام الأمة هويتها وروح الهوية لغتها وعمودها الفقري، يحيا الإنسان بها ويموت لأجلها، وجوده وبقاؤه متصلا بوجود اللغة فيه، وواجبنا نحن العرب أن ندافع عن لغتنا العربية وإعادة تهيئتها مع واقعنا بما يعبر عن خصوصية هويتنا ويحفظ تميز ذاتيتنا. ومن هنا تبرز الأهمية الكبرى لتدعيم مكانة اللغة العربية والعمل على نشرها في نطاق أوسع مما هي عليه وتحصينها، وهذا كله يتحقق عن طريق الجهات المسؤولة عن اللغة العربية (مجامع لغوية، مؤتمرات متخصصة...) وذلك بتطبيق التوصيات المقترحة عن الإدارة الجماعية للنخب الفكرية والعلمية والثقافية، التي تمتلك العلم والمعرفة والغيرة على اللغة العربية، ذلك أن الأخطار الناتجة عن تحديات العولمة والعلمانية التي تهدد الهوية العربية لا تتحقق إلا بالممارسة الفعلية للغة على أرض الواقع بآليات التكنولوجيا العصرية، يضاف إلى ذلك

إحياء اللغة العربية والتخاطب بها وجعلها لغة العلوم، وإرجاعها إلى منزلتها الأصلية كلغة رسمية وقومية تعبر عن الحاجات الاجتماعية، وهي تحمل في ذاتها دعائم تطورها فواجبنا أن نتخذ الإسلام منهجا ولغة قرآنه لغتنا، كما علينا استثمار الوسائل العلمية الحديثة في الدرس اللغوي لتطوير اللغة العربية.

إن ثنائية (العولمة والعلمانية) قدرا محتوما لا مفر منه، وهي جزء من جدل التاريخ، تتحدى اللغة العربية عن طريق تيار الانجليزية الجارف، وبالرغم من السوداوية والتشاؤم اللذين يسودان نفوس اللغويين والمفكرين العرب، فإنهم يتفاوتون في رؤيتهم لمستقبل اللغة العربية، فبعضهم يركن إلى الآية الكريمة <إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون> سورة الحجر الآية ٩ ٠ دون عمل بها. فاللغة العربية محفوظة. بعهد إلهي. ولها من الخصائص ما يؤهلها للبقاء فعلى حد رأي الأديب الإسباني "كاميليو جوزي سيلا" (الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٩) الذي أثار جدلا واسعا في الأوساط الغربية، ولاسيما دعاة العولمة والعلمانية، ومفاد هذا الرأي أن لغات العالم تتجه نحو التناقص، وأنه لن يبقى إلا أربع لغات قادرة على الحضور العالمي، هذه اللغات هي: الانجليزية،الإسبانية، العربية والصينية. وقد بنى رأيه هذا على استشراف مستقبلي ينطلق من الدراسات اللسانية التي تعاين موت اللغات وتقهقرها واندثارها ٣٤ .

ومن شهادات الغربيين أيضا على قدرة اللغة العربية على نقل الحضارة واستيعابها "إدوارد سابير" الذي قال " هناك خمس لغات فقط تشكل أهمية كبرى لنقل الحضارة هي.....والعربية"٣٥ وعلى الرغم من أهمية الرأيين السابقين فهناك أراء شتى تثبت أن ما آل إليه حال اللغة العربية في عصر العولمة، إنما يرتبط بوضع أهلها ومساهمتهم في إنتاج أنماط فاعلة في النشاط الإنساني...إن شهادة الآخر للعربية بالمتانة والانتشار كان بفضل أولئك الرجال العظماء الذين حملوها لغة فكر وعقيدة وتمدن وحضارة، فانفتحت على العالم القديم وثقافته واستوعبت كل ما لدية وظلت حريصة على حمل روحهم العربية الإسلامية في الوقت الذي اتصفت فيه بالرقة والجمال، ولعل مجرد التغني بالماضي وعظمته من دون أن نقدم شيئا لحاضرنا ومستقبلنا إنما يوقعنا في الوهم والانحراف، ولن نستطيع أن نخطو خطوة إلى التقدم والرقي، وستبقى لغتنا عاجزة عن مواكبة الابتكارات الحديثة، وهذا يعني بذل الجهود الجبارة على كل صعيد لنصبح مؤثرين في النتاج العالمي ولتغدو لغتنا متلقفة عند الناس، لذا علينا تنظيم العلاقة بيننا وبينها، ومعرفة دعائم قوتنا وقوتها، وإدراك طبيعتها ووظائفها لجعلها قادرة على استيعاب أحدث الاختراعات والاكتشافات والمصطلحات والنظريات.

خاتمة:

إن مفهوم الهوية يعادل مفهوم اللغة، والتفكير فيها يستلزم تحسين فهمنا لماهيتها في أعيننا وأعين الآخرين الذين يحيكون التدابير والمخططات العلمانية والعولماتية للقضاء على الإسلام واللغة العربية، والثابت لدينا أن الله تعالى تعهد بحفظ القرآن الكريم ولغته.

لكن إذا كانت اللغة كائنا حيا ينمو ويتطور ويقوى ويعجز فهو حال اللغة العربية شأنها شأن كل اللغات، وكفاها تشريفا أن الله أنزل به قرآنه على خاتم أنبيائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا ما جعلها مقصدا للعلمانيين بهدف القضاء عليها تمهيدا للقضاء على الإسلام، فنعتوها بكونها وراء التخلف العربي وجموده، لتيقنهم أن اللغة العربية هي وعاء الثقافة العربية وحاضن لهوية أمتها.

ولا شك أن اللغة العربية تستطيع مواكبة التطور المعرفي الهائل، والسعي لاستيعاب المستجدات الحضارية، ومواجهة تحديات العلمانية المتطرفة وطوفان العولمة الجارف، خاصة على الصعيد الثقافي واللغوي، وهي قادرة على الحوار مع الثقافات الأخرى دون إشكال أو حرج.

ومن سبل مواجهة الواقع المر الذي تعانيه لغتنا إضافة إلى ما سبق: الاعتزاز بلغتنا يكون بالتطبيق الفعلي والعملي بها، لا من خلال التنظير بالخطب الرنانة،بإحلال هذه اللغة محلها بتقريبها من المتدرسين وتربيتهم على حبها والتعلق بها منذ نعومة أظافرهم؛ لأن الرغبة أو الحب مؤثر في التعليم، وتسمى في علم النفس بالدافعية أو الحافز. وتنمية المهارات اللغوية للتلاميذ والأطفال.

توجيه الإعلام إلى التخاطب بالعربية الفصحى، وتفعيل التعامل بالعربية في مجالات الحياة المختلفة، وتعليم الطلاب التفكير المنظم باللغة الأم، وهذا دور المؤسسات التربوية والتعليمية.

كذلك الاجتهاد في وضع مناهج ملائمة للتربية والتعليم والتكوين يتماشى مع مستجدات العصر ويتفاعل مع هويتنا.

إبراز حقيقة الإسلام وتميزه

وتحصين النشء بالثقافة الإسلامية وقيمه الأصلية.

ضرورة نهوض المثقفين والأكاديميين بكشف الزيف الذي يكتنف أفكار العولمة والعلمانية، وتوضيح رحابة الإسلام وقبوله مبدأ حوار الحضارات.

إن دعوتنا هذه ليست ضد تعلم لغة الآخر أو تجاهلها لكوننا نؤمن بأن تعلم لغات أخرى يؤمننا شر أهاليها كما أنها تفيدنا من التقدم والرقي المعرفي والتكنولوجي، لكن يتحقق ذلك وفق سياسة حكيمة تهدف إلى تجاوز الهوة التي تفصلنا عن الدول المتقدمة،وليس بغرض إزاحة العربية عن مكانتها الطبيعية واستبدالها بأخرى، لذلك يتوجب أن يكون تعلم لغة الآخر تاليا لإتقان اللغة الأم (العربية)؛ لأنها روح هويتنا ولغتنا الرسمية والوطنية بها نحقق وجودنا ونثبت تميزنا وننقل حضارتنا وثقافتنا.

قائمة المصادر والمراجع:

١/ ابن منظور: لسان العرب، مج ٦، ص ٤٧٢٩

٢/ الشريف الجرجاني: التعريفات، دار عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٧، ص ٣١٤

٣/ صومائيل ب هنتكتون: التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، تر: حسام الدين خضور، دار الحصاد، دمشق/سوريا، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٣٧

٤/ جون جوزيف: اللغة والهوية ـ قومية، إثنية، دينية ـ ، تر: عبد النور خراقي، عالم المعرفة، الكويت، يناير ١٩٧٨، ص ٢٨٢

٥/ موسى بن سعيد نقلا عن ندوة الهوية العربية عبر حقب التاريخ، ٢٦،٢٥/ ٠٦/ ١٩٩٧، المجمع العلمي بغداد، الكلمة الافتتاحية للندوة، ص ٧

٦/ جليلة المليح الواكدي: مفهوم الهوية، مركز النشر الجامعي، منوبة/ تونس، ٢٠١٠، ص ٧٠

٧/ ينظر: محمد سمير المنير: العولمة عالم بلا هوية، دار الكلمة للنشر والتوزيع، مصر، ط ١، ٢٠٠٠، ص ١٤٦

٨/ ينظر: أنور الجندي: حتى لا تضيع الهوية الإسلامية والانتماء القرآني، دار الاعتصام، سلسلة الرسائل الجامعية، ص ٧

٩/ محمد الغزالي: هموم داعية، ص ص ٩٤، ٩٥

١٠/ ابن منظور: لسان العرب، مج ٥، ص ص: ٤٠٤٩، ٤٠٥٠

١١/ أبو الفتح عثمان ابن جني: الخصائص، ت: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، مصر، ج ١، ص ٢٣

١٢/ محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة/ مصر، ص ١٠

١٣/ عبد الكريم غلاب: أزمة المفاهيم وانحراف التفكير، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط ١، ١٩٩٨، ص ٣٦

١٤/ ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، ت: أحمد محمد شاكر، قدم له: إحسان عباس، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط ١، بيروت/ لبنان، ١٩٨٠، ص ٣٤

١٥/ حسين جمعة: اللغة العربية، سلسلة الدراسات (٧)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق/ سوريا، ٢٠٠٨، ص ٧٢

١٦/ محمد عمارة: مستقبلنا بين العالمية والعولمة الغربية، سلسلة في التنوير الإسلامي (٥٣)، دار نهضة، مصر، ط ١، ٢٠٠١، ص ص:٢، ١٤

١٧/ وليد إبراهيم الحاج: اللغة العربية ووسائل الاتصال الحديثة، دار البلدية، عمان/ الأردن، ط ١، ٢٠٠٨، ص ٢٤٥

١٨/ عبد الله عبد الدائم: التربية والقيم الإنسانية في عهد العلم والثقافة والمال، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٢٠، بيروت/ لبنان، ١٩٩٨، ص ٦٤

١٩/عبد الرشيد عبد الحفيظ: الآثار السلبية للعولمة على الوطن العربي وسبل مواجهتها، مكتبة مدبولي، القاهرة/ مصر، ط ١، ٢٠٠٥، ص ١١

٢٠/ لخميسي عثمانية: عولمة التجريم والعقاب، دار هومة، الجزائر ، ٢٠٠٦، ص ٦٩

٢١/ فضل الله محمد سلطلح: العولمة السياسية، دار الجامعتين للطباعة، الإسكندرية/ مصر، ط ١، ٢٠٠٠، ص ١٠

٢٢/ المرجع نفسه: ص ٤٩

٢٣/ يوسف القرضاوي: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، دار الشروق، القاهرة/ مصر، ط ١، ٢٠٠٤، ص ١٢٣

٢٤/ ينظر: فؤاد البنا، العالم الإسلامي بين التخلف الحضاري ورياح العولمة، دار التوزيع والبشر الإسلامية، ط ١، ٢٠٠٦، ص ص: ٢٣٠، ٢٣١

٢٥/ موردات ميخل: أمريكا المستبدة ـ الولايات المتحدة وسياسة السيطرة على العالم (العولمة)، تر: حامد فرزات، منشورات اتحاد الكتاب العرب،

دمشق/ سوريا، ٢٠٠١، ص ١٩٦

٢٦/عمر عبد الهادي عتيق: اللغة العربية بين العولمة والأصالة (تجليات العولمة في ظل اللغة العربية)، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد ٢٢، شباط ٢٠١١، ص ٣٦٥

٢٧، ينظر: سفر بن عبد الرحمان الحوالي: العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، دار الهجرة، د ط، د ت، ص ٢١

٢٨/ المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بمصر، مكتبة الشروق الدولية، مصر، مادة:"علم"، ط ٤، ٢٠٠٤، ص ٦٢٤

٢٩/مصطفي المصمودي: النظام الإعلامي الجديد، عالم المعرفة، الكويت، د ط، د ت، ص ص: ١٨٤، ١٨٥

٣٠/ سمير الخوري: الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٤٣١

٣١/ عبد القادر فوضيل: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الدفاع عن اللغة العربية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي لبلادنا، أشكال الصمود والمقاومة، المجتمع المدني وترقية استعمال اللغة العربية بالجزائر، فيفري ٢٠٠٦، ص ٢٢

٣٢/ صالح بلعيد: مجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري تيزي وزو، مخبر الممارسات اللغوية، العدد ١٢، الجزائر ٢٠١٢، ص ٢٣

٣٣/ صالح بلعيد: مجلة الممارسات اللغوية، العدد ١١، ص ١٥٧

٣٤/ وليد العناتي وعيسى برهومة: اللغة العربية وأسئلة العصر، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٧، ص ٨٩

٣٥/ أحمد بن محمد الضبيب: اللغة العربية في عصر العولمة، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ٢، ٢٠٠٦، ص ٨٩